الهوية الثقافية العراقية في ظل تحديات العولمة

م.د مازن قاسم مهلهل

مركز إحياء التراث العلمي العربي/ جامعة بغداد

Mkssam922@gmail.com

الملخص

تتميز العديد من المجتمعات بطبيعة انتمائها المرتبط بالقيم والتصورات الملامسة للمتغيرات التاريخية والحضارية، وكل شعب من الشعوب البشرية ينتمي إلى ثقافة متميزة عن غيرها، لأن الثقافة تتطور باستمرار وتتأثر بالهويات الثقافية الأخرى. ومن جانب آخر فأن تحديات العولمة تعد تهديداً للهوية.

الثقافية، وذلك عبر تحويل نمط الحياة إلى نمط غربي، وهذا في حد ذاته سيولد صراع من أجل حفظ كل ما يلامس خصوصية المجتمع، ويثبت الهوية الثقافية العربية ومنها العراقية، وتحويل ثقافتنا من ثقافة استهلاكية إلى ثقافة منتجة مثلها مثل مثيلتها من الثقافات متعالية القيم والمفاهيم.

تكون البحث من مقدمة أكدت فيها على إن لكل امة قيمها ومبادئها والتي تعد جزءاً من ثقافتها ومكوناً أساسياً لهويتها التي تميزها عن غيرها من المجتمعات الأخرى كما تضمنت الدراسة إشكالية، خرج منها الباحث بالسؤال الرئيسي لمشكلة البحث: هل تتحدد الهوية كـ "مفهوم" غير مستقر وقابل للتحوّل والتغيّر والاستجابة عبر المؤثرات المختلفة ؟ وما هي المنعطفات التي عملت على تغير هوية الثقافة العراقية في ظل تحديات العولمة ؟ وفي الاطار النظري اعتمد الباحث ثلاثة عنوانات، وهي: مفهوم الهوية الثقافية، ومفهوم العولمة وتأثيره على الهوية الثقافية، كيفية الحفاظ على الهوية الثقافية في ظل تحديات العولمة. ومن ثم الخاتمة، ليتم أخيرا تثبيت مراجع ومصادر البحث.

الكلمات المفتاحية: (الهوية الثقافية، تحديات، العولمة).

Iraqi Cultural Identity in the Face of Globalization Challenges

Dr. Mazen Qasim Mahalhal
Center for the Revival of Arab Scientific Heritage / University of Baghdad
Mkssam922@gmail.com

Abstract
Many societies are characterized by the nature of their belonging linked to values and perceptions that touch on historical and civilizational variables, and each people of human peoples belongs to a culture distinct from others, because culture is constantly evolving and influenced by other cultural identities. On the other hand, the challenges of globalization are a threat to cultural identity, by transforming the lifestyle into a Western style, and this in itself will generate a struggle to preserve everything that touches on the privacy of society, and establishes the Arab cultural identity, including the Iraqi one, and transforms our culture from a consumer culture to a productive culture like its counterparts of cultures with superior values and concepts.
The research consisted of an introduction in which it emphasized that each nation has its values and principles, which are part of its culture and an essential component of its identity that distinguishes it from other societies. The study also included a problem, from which the researcher came out with the main question of the research problem: Is identity defined as an unstable "concept" that is subject to transformation, change and response through various influences? What are the turning points that have worked to change the identity of Iraqi culture in light of the challenges of globalization? In the theoretical framework, the researcher adopted three titles: the concept of cultural identity, the concept of globalization and its impact on cultural identity, how to preserve cultural identity in light of the challenges of globalization. Then the conclusion, to finally establish the references and sources of the research.
Keywords: (Cultural identity, Challenges, Globalization).

المقدمة

يعتمد كل مجتمع على هوية تميزه عن غيره من المجتمعات، والهوية تشكل نمط حياة ولغة تفاهم مشتركة بين افراد هذا المجتمع، وايضاً تشكل تناغم في النظر للأشياء والأمور والمتغيرات، ونمط التعامل مع البيئة المحيطة، وقد عملت المجتمعات على المحافظة على هويتها عبر الاجيال المتعاقبة، وحرصت على الحفاظ عليها حتى في أقسى الظروف عندما وقعت أوطانها تحت نيران

الاحتلال (العسكري او الفكري)، وتمثل الهوية دافعاً قوياً للنضال ضد أي استعمار يحاول إزاحة هوية الشعوب الثقافية.

إنَّ لكل امة قيمها ومبادئها والتي تعد جزءاً من ثقافتها ومكوناً أساسياً لهويتها التي تميزها عن غيرها من المجتمعات الأخرى، لذا تحرص المجتمعات على التمسك بها ونشرها بين الأفراد، من أجل الحفاظ على كيانها، ولأن تؤدي دور رئيسي في تعزيز تعليم وغرس القيم في عقولهم وقلوبهم منذ سنوات أعمارهم الأولى، ودعم قيم الولاء والانتماء، وتأكيد الثوابت وترسيخ اسسها ودعائمها الرئيسية.

ومن اشكاليات العصر الحالي، هو صعوبة الحفاظ على الهوية نتيجة لوجود العديد من العوامل المهددة لها، كالتكنولوجيا التي تمثل سلاح ذو حدين، وانفتاح شعوب العالم بعضها على بعض، مما جعل الغلبة للدول الأكثر نفوذاً كالدول المتقدمة التي تصدر منتجاتها الصناعية والثقافية والتي تعبر عن هويتها من خلالهما، وايضاً تأثير الأنشطة السياحية والعلمية والفعاليات الدولية فضلاً عن تزايد الهجرة عبر الحدود وما يترتب عليها من نقل هويات إلى الدول المستقبلة للمهاجرين. وعليه خرج الباحث بالسؤال الرئيسي لمشكلة البحث: هل تتحدد الهوية كـ "مفهوم" غير مستقر وقابل للتحوّل والتغيّر والاستجابة عبر المؤثرات المختلفة ؟ وما هي المنعطفات التي عملت على تغير هوية الثقافة العراقية في ظل تحديات العولمة ؟ كما ان هدف دراسة علاقة العولمة بالهوية الثقافية، هو لخلق آليات من أجل النهوض بالفكر العربي والثقافة العراقية بالتحديد، دون المساس بالهوية الثقافية واتخاذ السبل للمحافظة عليها من المخاطر التي تهددها ومن هذه المخاطر العولمة التي تحول العالم إلى قرية صغيرة وتساهم في الربط بين القطاعات المحلية والعالمية.

اولا – مفهوم الهوية الثقافية

إنَّ الهوية الثقافية هي أحد أبعاد الأمن القومي الاجتماعي، والتي تزايدت أهميتها في الفترة الأخيرة، وخصوصاً مع الانفتاح الإعلامي والثقافي، إذ تزداد قدرة التكنولوجيا ووسائل الاتصال الحديثة على الانتشار بين ثقافات الشعوب. ويعد مفهوم الهوية من المفاهيم الحديثة نسبياً، إذ ارتبطت نشأتها ببعض نظريات علم الاجتماع التي أكدت انتماء الهوية بالمجتمع، إذ "تعبر الهوية

الثقافية عن مجموعة من الخصائص والمميزات العقائدية واللغوية، والمفاهيم الخلقية والثقافية والعرقية والتاريخية والعادات والتقاليد والسلوكيات"

إن الهوية الثقافية بصورة عامة هي مجموعة انظمة من القيم والتصورات التي يتميز بها مجتمع ما تبعاً لخصوصياته التاريخية والحضارية على وجه العموم، وكل شعب من الشعوب البشرية ينتمي إلى ثقافة متميزة عن غيرها، كما أنها كيان خاص بالأمم يدخل بدوامة تسعى للتطور باستمرار دائم، وتتأثر الهوية الثقافية لشعبٍ ما بالثقافات الأخرى، ولهذا يكون تقسيمها بالعموم على ثلاث مستويات هوية (فردية – جماعية – وطنية)، وعليه، فإن الهوية الثقافية تتحرك في ثلاث دوائر متحدة المركز، لأن الفرد داخل الجماعة الواحدة يمثل هوية متميزة ومستقلة، والجماعات داخل الأمة لكل منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة، مما يعني أن ثمة مستويات ثلاثة للهوية الثقافية (الفردية – الجماعية – الوطنية)عند تعريف الهوية الثقافية يمكن القول إنها الكيفية التي يُعرف الناس بها ذواتهم أو أمتهم، وتأخذ من اللغة والثقافة والدين أشكالاً لها، فهي تنأى بطبعها عن الأحادية والصفاء، وتذهب باتجاه التعددية التكاملية إذا أُحسن تدبيرها، وتنحو منحى صدامياً إذا أُهملت وأسيء فهمها، وتستطيع أن تكون عامل توحيد وتنمية للشعوب، "كما يمكن أن تتحول إلى عامل تفكيك وتمزيق للنسيج الاجتماعي، الذي يؤسس عادة عن طريق اللغة الموحدة والخاصة بشعبٍ ما"[١]. قد أصبحت مجتمعات العالم المختلفة تعتمد أكثر فأكثر على بعضها البعض، عبر عملية معقدة تتضمن مجموعة متنوعة من الأبعاد الثقافية والسياسية والتكنولوجية والاقتصادية والبيئية تحت مسمى العولمة، ويتم تقديم البعد الاقتصادي والتكنولوجي للعولمة، والتي لها تأثير كبير على البعد الثقافي والهويات العامة والهويات الفرعية، "ومن الضروري أن يحصل هذا التلاقح الفكري والعلمي والثقافي، ما بين شعوب الارض، وبالأخص بعد أن أصبح العالم عبارة عن قرية صغيرة في ظل التطور التكنولوجي الهائل" [٢]، لكن بشرط الحفاظ على الهوية الثقافية والوطنية والقومية والنمط السلوكي والفكري والثقافي لخصوصية الامة، وايضاً الهوية الثقافية على المستوى الفكري والعقيدة.

انتشرت فكرة الهوية منذ القدم لدى المجتمعات نتيجة لاختلاف ما أنتجته من فكر، وطورته من أدوات، وشرعته من قوانين ومبادئ لإدارة أمورها، ومفهوم الهوية يعد من المفاهيم الحديثة،

وبوساطة قراءة بعض الادبيات المتعلقة بالهوية، تبين أنه لا يوجد تعريف محدد لمفهوم الهوية، وذلك بسبب تعدد المدارس الفكرية التي تناولته، فضلاً عن سعته وشموليته، وشاركت في تكوينه متغيرات متعددة، منها: المتغيرات الاجتماعية التي تطرأ وتؤثر في الفكر، وعلى الرغم من أن لمفهوم الهوية دلالته اللغوية، واستخداماته الفلسفية والاجتماعية والنفسية والثقافية، "إلا أن اغلب المجالات التي تناولته تتفق في تبنى مفهوم متقارب للهوية عند تعريفه، وهو أنها تعني (الخصوصية والتميز عن الغير)" [٣]، وتمثل الهوية الخصوصية التي تميز مجموعة بشرية عن غيرها كالعيش المشترك، العقيدة، اللغة، التاريخ وايضاً المصير المشترك.

ويتقارب مفهوم الهوية الثقافية لدى الغرب في مفهومها عند العرب، وعرفت في اللغة الإنجليزية بمصطلح (Cultural identity)، ويقصد بها السمات المميزة لجماعة يعيشون في منطقة معينة لها تقاليدها ودينها ولغتها ونسبها وهياكلها الاجتماعية، نستنتج مما سبق أن "الهوية الثقافية هي مجموعة من السمات الثقافية التي تميز أبناء مجتمع معين عن غيرهم من أبناء المجتمعات الأخرى" [٤]، وتنتج لديهم شعور بالألفة والتماسك الاجتماعي والإحساس بالانتماء لهذا المجتمع، وهى الخصوصية الثقافية التي تميز شعب عن غيره، كما أنها قابلة للتطوير والتجدد مع الاحتفاظ بخصائصها الثابتة التي تحددت بفعل التاريخ واللغة والقيم والدين.

وفي الوقت نفسه مكون له، والانتماء إلى ثقافة معينة يشعر كل فرد بالوجود ضمن إطارها وبالتوحد معها، والمشاركة فيها ضمن وجود الشخصية الاجتماعية التي تربط أفراد الأمة بعضهم ببعض في لغة واحدة، وعادات وتقاليد متشابهة، ومنظومة من القيم الروحية، والأخلاقية والاجتماعية والسياسية. تمثل الهوية الخصوصية التي تميز جماعة معينة من البشر عن غيرهم: كـ "التاريخ"، اللغة، العيش المشترك، العقيدة، المصير المشترك، إذ أن الهوية الثقافية تحمل دلالتها عبر المحددات الأساسية لثقافة الأمة، وقد عبر عنها (مونتسكيو) بروح الأمة، بأنها تمثل رمز وحدتها واستمراريتها، وتتفاعل عناصر هذه الهوية ضمن إطار هوية مركزية أو أرضية مرجعية يتم تحديدها وفق مرجعين، هما: "الثقافة و"الهوية الوطنية". على اعتبار أن هذا التحديد بمقدوره أن يستوعب كل الثقافات الفرعية" [٥]. وعليه، فإن الهوية الثقافية في ضوء ما تقدم تعبر عن جملة السمات والخصائص التي ينفرد بها مجتمع عن غيره ممثلة في اللغة والدين والعادات والتقاليد

والأعراف، وغيرها من التكوينات الثقافية، والتي تتفاعل مع المتغيرات المحيطة به فتتغير معه دون أن تذوب فيه وتتأصل بداخله، لكنه يكتسب الجديد دائما، وتولد لدى أفراده شعوراً بالتماسك الاجتماعي.

تعتمد مسألة الهوية الثقافية لأي مجتمع على اهتمام المفكرين والباحثين، لما لها من تأثير في بنية المجتمع، وتماسكه، وترابط مكوناته، ومن هذا الشعور القومي، يستمد الفرد إحساسه بالانتماء، ويشعر بمكانته في المجتمع، من خلال اشتراكه مع عدد كبير من ابناء امته في عدد من المعطيات والمكونات، والأهداف، وانتمائه إلى ثقافة تتضمن جملة من المعايير والرموز التي تحدد توجهاته، وهنا نعرف بان الهوية الثقافية للمجتمع العراقي تتميز بعدد من الملامح أو الأبعاد المميزة التي تعطي شعبها وحدة هي في أشد الحاجة إليه لكي نحافظ على هويتنا وتحول دون الذوبان في هويات أخرى مغايرة، ومن أهم تلك الملامح هو اساس الجانب الديني أو العقائدي، وما يتصل به من عدم التعصب أو الاضطهاد الديني، وايضاً من تلك الملامح هي العروبة، "فالشخصية العراقية هي اصل الشخصية العربية ولها مجموعة من الخصائص التي تتفرد بها دون سائر العرب، ولعروبته خصائص يشترك فيها مع سائر العرب" [٦]، وبالتالي فالهوية الثقافية العراقية تتصف بالانتماء الثقافي العربي، ووسيلته في التواصل داخل هذا النمط الثقافي العربي الواحد هو اللغة العربية بالدرجة الاساس، بالإضافة إلى بعض الملامح التي تغيرت بفعل التغيرات المجتمعية التي مر بها المجتمع العراقي عبر التاريخ.

وقد تعرض المجتمع العراقي إلى مجموعة من التغيرات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والتي جاءت بعض أثارها سواء سلباً أو إيجاباً مغيرة من سمات تأسيس الهوية الثقافية العراقية، ويتأكد هذا عبر حدوث تغير في سمات الشخصية العراقية، ومنها قسوة الظروف الاقتصادية، وتأثرها غير الواعي بقيم الحضارة الغربية التي تركز على المصلحة الشخصية والقيم المادية في العلاقات الإنسانية. وعندما ننظر إلى ملامح الشخصية العراقية على مر العصور نجد أنها لم تكن سوى نتاج للتحولات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، ونتيجة لوجود ظروف وعوامل مجتمعية عديدة استجدت وأحاطت بها، ويشير الواقع إلى تذبذب وتغير سمات الشخصية العراقية في ظل الظروف الراهنة التي يمر بها المجتمع. نتجت الثقافة بعداً معرفياً لشكل الهوية

عبر دمج عناصر الحداثة مع رموز التراث في أشكال تفاوتت قيمتها الجمالية والفكرية واختلفت درجة ارتباطها بالقضايا اليومية للمجتمع، لاسيما وأنها بدأت في الظهور والنشوء من جراء اللقاء التاريخي اللامتكافئ بين المجتمع العربي والحداثة الغربية في تعبيراتها الهيمنة والاستلابية [٧]. وهنا يمكن ذكر أبرز ملامح الهوية الثقافية في المجتمع العراقي والعوامل المجتمعية التي أدت إلى حدوث مثل تلك التغيرات:

١- **تشويه اللغة:** نظراً لأهمية اللغة في حياة الأمم والشعوب والأفراد، حرصت القوى السياسية الكبرى منذ زمن بعيد على أن تجعل للغاتها السبق، والتميز دون غيرها من اللغات، ونتيجة للانفتاح العالمي بين الدول اندثرت لغات، وتقاربت لهجات، وطغت بعض اللغات القوية صاحبة النفوذ والقوة السياسية والثقافية والاقتصادية على لغات أخرى ضعيفة وحلت محلها، وهناك دراسات تشير إلى وجود العديد من اللغات الحية على وجه الأرض، "وقد تقلصت هذه اللغات بالتدريج إلى أن وصلت إلى ما يقرب من (٥٠٠) لغة (٣٠٠) منها في قائمة الخطر، والمتوقع أن تستخدم البشرية في القرن العشرين (١٢) لغة فحسب" [٨].

٢- **منظومة القيم:** تعبر القيم عن مجموعة من التصورات والمفاهيم التي تشكل لدى الفرد منظومة من المعايير والأحكام والمعتقدات والتفضيلات الراسخة التي تتكون لديه من خلال تفاعله في المواقف والخبرات الفردية والجماعية، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته، وتتجسد في الاهتمامات أو الاتجاهات أو السلوك العملي، أو اللفظي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. "وتعمل هذه المنظومة هنا كإطار مرجعي يحكم تصرفات الفرد" [٩]، وتشكل الهوية الثقافية للجميع منظومة القيم في المجتمع العراقي، رغم أنها شهدت حالة من التراجع بالأخص مع بداية القرن الحادي والعشرين، وهو ما عبر عنه البعض بأزمة في القيم والأخلاق فأصبحت قيماً مادية، وقلت معايير الثقة بين الناس، كما شهدت خللاً في منظومة العدالة الاجتماعية، وعظمت القيم النفعية، فزادت حالات الفساد في الكسب المادي فقط.

هنالك عدة عوامل أدت الى إحداث التغيير في هوية المجتمع العراقي، وتشير الدراسات إلى أن التغيرات التي شهدها المجتمع العراقي تاريخياً تركت آثار كبيرة علي سلوكيات المواطنين، ومنظومة القيم، وشكل الأطر الثقافية والاجتماعية، "ومن تلك العوامل هو اتجاه سياسة الدولة من

التقييد إلى الانفتاح، ومن التدخل في شؤون الاقتصاد إلى الانفراج والحرية، ومن الاشتراكية المتحيزة للفقراء إلى الرأسمالية المتوحشة" (١٠)، والانتقال من مرحلة سيطرة القطاع العام وأولوية العدالة الاجتماعية إلى مرحلة الخصخصة وآليات السوق، مما أدى ذلك إلى وجود صراع مروع بين التمسك بالقيم والتمسك بالمال، وبين الحفاظ على اللغة والتراث والتاريخ، وايضا بين الذوبان في كل ما هو أجنبي بوصفه المصدر الأعلى للدخل، وباعتبار أن المادة اصبحت هي الغاية انهارت قيم أخرى، وصعدت أخرى وفتحت شهية الكثيرين لبلوغ الثروة بأي طريقة، ومن أي مصدر، مشروعاً كان أو غير مشروع، حتى لو باع الخدمات المجانية، وتقاضي الرشوة، وبنى أبراج الموت، وتاجر في المخدرات وتهرب من الضرائب وحصل على قروض دون ضمانات واستورد الأغذية الفاسدة، ومارس الاحتكار (بجميع الطرق الشرعية واللاشرعية).

من العوامل التي ادت الى إحداث التغيير في هوية المجتمع العراقي هو الترويج الى قيم جديدة لا تتلاءم مع مجتمعنا وما لذلك الترويج من قدرة للتأثير على شريحة من الجماهير بلا وعي، كالترويج للسلوك الاستهلاكي. وهذا يتفق مع الدعوة التي ظهرت في نهاية تسعينيات القرن الماضي بما يسمى بـ International Citizen (Value Free) أي المواطن العالمي المتحرر من أية قيم خاصة، أو معالم ثقافية وحضارية تميزه عن غيره، المقصود من هذا أن "يكون مهيأ لتقبل واعتناق قيم العولمة الثقافية الاميركية، كما ظهرت فكرة المواطن العالمي الذي يتبنى ثقافة واحدة وقيما حضارية واحدة وشخصية عالمية واحدة لها سمات محددة، غالبا ما تكون روافدها غربية الطابع" (١١). ومما سبق يمكن القول أن التدخلات الخارجية فرضت نفسها بقوة على تحديد الهوية الثقافية للشخصية العراقية، وفرضت في الوقت نفسه قيوداً على غالبية التفاعلات الاجتماعية والسياسية، كما أن الهوية العراقية تتسم بالتغير النسبي، فلا هي جامدة بصفة عامة، ولا متغيرة بصفة مستمرة، وهذه التحولات المجتمعية التي يمر بها المجتمع لها دور مؤثر في الحفاظ على بعض سمات الهوية الثقافية العراقية الاصيلة التاريخية واستمرارها أو تغيرها.

لهذا وجد الباحث أن الهوية الثقافية تعمل على تحقيق وجود الفرد وكيان الجماعة، وإثبات خصوصيتهم عبر محددات متعارف ومتفق عليها، إذ أن الهوية الثقافية معرفة وإدراك الذات ومكوناتها القيمية والمتمثلة بالأخلاق والعادات والتقاليد والدين، كما لها سمات وخصائص يتميز بها

شعب ما عن غيره من الشعوب، وترتبط هذه السمات بالسلوكيات العامة لمجموع الأفراد والعلاقات السائدة، للمنتج الفني والثقافي، ذلك وفق إطارها المعبر عنها، والذي يتجلى بصورة معلنة عبر أنماط وأساليب مختلفة.

ثانياً – مفهوم العولمة وتأثيره على الهوية الثقافية

قد يتفاوت فهم الأفراد لمضامين العولمة المختلفة، فالعولمة بالمفهوم الاقتصادي تفهم بخلاف عالم السياسة، كما أن عالم الاجتماع يفهمها فهماً قد يختلف فيه عن المهتم بالشؤون الثقافية، إذ أن معناها الثقافي هو مرحلة من مراحل التفكير الإنساني في العالم المعاصر، بدأ بالحداثة وما بعد الحداثة، وثم العالمية الى ان وصلت للعولمة، ونحن الآن في مرحلة (الأمركة)، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الكوكبة نسبة إلى كوكب الأرض وبعدها يتطلعون بعد ذلك إلى مرحلة الكونية، اما "المفهوم الاقتصادي هو تحول نوعي لأقتصاد يتصف بكل بساطة بأنه دولي، والاقتصاد الدولي هو الاقتصاديات القومية المنفصلة فيه مسيطرة" [١٢]، على الرغم من اتساع النشاط بين الدول، وتعني في جانبها السياسي، الاتجاه المتواصل نحو تعددية تعمل فيها المنظمات الدولية على تأدي دور اساسي لتشكيل بنية عابرة للقوميات، وظهور شبكة من المنظمات غير الحكومية المحلية والدولية التي تراقب عمل الحكومات وتؤثر عليه.

الحديث عن ثقافة العولمة متشعب، ويصعب حصره أو الإلمام به، لكن يمكن القول بأن الإطار الفكري أو الثقافي لأفكار دعم الرأسمالية يعمل بجد على إقناع الشعوب بموافقته للعقل، لأنه يحقق رغبات الأفراد بحرية مطلقة وفكرة العولمة تمتد جذورها الأولى من خمسة قرون بظهور فكرة الدولة القومية محل فكرة الإقطاعية. وفي ظل زيادة التقدم "أصحبت الدولة لا تستوعب حجم السوق فظهرت الشركات متعددة الجنسيات" [١٣]، وحلت في السوق محل الدولة بصورة متدرجة، حتى أضحى العالم مجالاً لعمل الشركات.

وهناك من يدعو إلى العولمة والأخذ بها، وآخر يحذر من خطرها على هويتنا وثقافتنا والبعد عنها، والرفض المطلق للعولمة لن يمكن الدول والمجتمعات من تجنب اخطارها، كما أن القبول المطلق لها لن يمكنها من الاستفادة الكاملة منها، ولعل التركيز على الابعاد التامة في تعريف العولمة تكون نابعة من كونها نتاج لتطور النظام الرأسمالي وحاجته إلى التوسع المستمر

في الأسواق، وعلى الرغم من تغلب البعد الاقتصادي على أغلب تعريفات العولمة، فإن دلالة المصطلح في تطورها استقرت على أنها ظاهرة تتداخل فيها أمور الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع والسلوك، ويكون الانتماء فيها إلى العالم كله عبر الحدود السياسية الدولية، ويحدث فيها تحولات على مختلف الصور تؤثر في حياة الإنسان في كوكب الأرض أينما كان. "الإعلام يمثل إحدى الركائز الأساسية التي قامت عليها العولمة، ويؤكد "فوكوياما" ذلك بقوله: إن العولمة تعتمد على ثلاثة أسس وهي [١٤]":

١- تكنولوجيا المعلومات والإعلام.

٢- حرية التجارة الدولية في مرحلة ما بعد الشركات متعددة الجنسيات.

٣- اقتصاد السوق وحرية الحركة في الأسواق العالمية.

في اغلب مجالات الحياة المستحدثة والمختلفة هناك مؤيدين ومعارضين، ومن هذه الانظمة نظام العولمة، والملفت أن قضايا العولمة وإشكالياتها تطرح كظاهرة حديثة نوعاً ما، والظاهرة لا فكاك منها، فهي تشغل المهتمين بها، خاصة إذا كانت هذه الظاهرة تدور حول قضايا مهمة لأغلب الموجودين في المحافل الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإعلامية، فضلاً عن المنتديات الوطنية في الوطن الواحد أو خارجه بحيث تدور حول اغلب قضاياه، ومن هنا كان هناك من يدعو إلى العولمة والأخذ بها، وفريق آخر يحذِّر من خطرها على هويتنا وثقافتنا والبعد عنها. أن الذين يؤيدون فكرة العولمة، والأخذ بها يكون من بوابة الاخذ بفائدتها والتي تعود على انسجة المجتمع، "يستند المؤيدين إلى أنها أحدثت نقلة نوعية في عالم المعلومات في كل ميادين المعرفة، وقربت المسافات، واختصرت الزمن" [١٥].

إنَّ العولمة بهذا المعنى تشبه القطار، يمتلك نفوذ يحكم من خلالها على من يمر به ومن يركب فيه، وإلا بقي وحده منفرد لا يحمله شيء إلى حيث يريد، وكأن ذلك الذي يتخلف عن الركب يتحدى المعايير الدولية في سباق العولمة، بل يتحدى ذلك الحلم الرأسمالي الذي يبدو في العقل الأميركي نبوءة إنسانية مقدسة، ويذهب بعض الباحثين إلى أن العولمة تؤدي إلى وحدة القيم الثقافية، والمؤيدون للعولمة يستندون إلى أنه ليس بوسع أحد أن يغفل الدور الحاسم للحاسبات الإلكترونية باعتبارها ميزة لثورة المعلومات الهائلة، والتي اصطبغ بها النظام الدولي المعاصر في

السنوات القليلة الماضية بالأخص في مجال الدفاع وبناء القدرات العسكرية للدول، وقد تميزت هذه الثورة بعدة مميزات منها انها ساعدت في اختصار المدى الزمني الذي يفصل بين كل ثورة صناعية وأخرى، والاعتماد على نتائج العقل البشري وعلى حصيلة الخبرة والمعرفة التقنية فيحدد ثمن القيمة بالمعرفة والتكنولوجيا المستخدمة وليس بالاعتماد على المواد الخام، ومواكبة هذا التطور "يتطلب استثمار في مجالات تتعلق بأمور التعليم وتطوير المهارات البشرية" (١٦)، وتنمية كوادر وقدرات تستطيع التعامل والتكيف مع هذه النظام، وهنا يتحتم استغلال الطاقات البديلة، والاستفادة من الطاقة الشمسية، واقتحام مجال الهندسة الوراثية وتكنولوجيا إنتاج الطعام الرخيص بكميات وفيرة.

يكمن تأثير العولمة على الهوية الثقافية بشكل خطر على الدول الضعيفة، فهي مرتبطة بتهميش الدول المفككة لأنها تستمد هويتها من الاعتراف الدولي الذي تقبض عليه الهيمنة الأميركية، ومن دار في فلكها من الدول الأوروبية فهؤلاء هم الذين يمنحون شهادات ميلاد الدول ووفاتها، وأن تأثير العولمة الثقافية أخطر من العولمة الاقتصادية، بل هي التي تستهل لها الطريق تحرث لها الأرض، وتفتح لها الأبواب، وتسوق منتجاتها بين الشعوب حتى تسوغ عندها بل تهواها وتركض خلفها، وايضاً تؤثر عملية عولمة الثقافة على معنى فرض ثقافة أمة على سائر الأمم، أو ثقافة الأمة القوية على الأمم الضعيفة، بعبارة أخرى صريحة فرض الثقافة الأميركية على العالم كله شرقاً وغرباً، المسلمين والنصارى، والموحدين والملحدين، والملتزمين وغير الملتزمين، ووسيلته إلى هذا الغرض الأدوات والآليات الجبارة عابرة القارات والمحيطات من أجهزة الإعلام والتأثير بالكلمة المقروءة والمسموعة والمرئية بالصوت والصورة والبث المباشر وشبكات المعلومات العالمية كالإنترنت وغيرها.

تعد العولمة من الناحية الثقافية تبعاً لوجهة نظر اغلب الباحثين بأنها حدث تاريخي ينشأ من حكمة الفلاسفة والعلماء اليونانيين كأرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم، ممن وضعوا أسسه في القرن الرابع بعد الميلاد، مما شكل ثقافة غربية مميزة وانتشرت هذه الثقافة في الفكر الغربي لقرون متعددة وصولاً إلى يومنا هذا، "كما ساهم الغزو الروماني للمناطق العربية والإسلامية وكذلك لشعوب أوروبا بنشر ثقافاتهم وفنونهم في تلك البلاد لوضع بذور العولمة الثقافية في بلدان العالم الغربي لعدة قرون" (١٧).

تسيطر العولمة على الفكر البشري، وتسعى لفرض ثقافة عالمية واحدة تسيطر على العالم، وتقضي على الثقافات الوطنية ويساعدها على ذلك وسائل الإعلام والتكنولوجية، مع تمحور أنظمة العيش حول أسلوب ومحاكاة النموذج الغربي في مختلف مجالات الحياة، كونه يمثل الثقافة الأكثر تقدماً، فضلاً عن فرض نمط واحد للاستهلاك، بمعنى آخر فرض النموذج الثقافي، لذا نجد أن الجهود المبذولة جميعها لإلحاق البشرية بركب حضارة معينة بذاتها، ويسميها بعض المفكرين بـ (العنصرية الثقافية المتغطرسة)، وتعمل "العولمة بمختلف وسائلها لجعل كل شيء قابل للاستهلاك، مما يدفع الجميع للعيش كمستهلكين" [١٨]، وبالتالي تمكين ثقافة الاستهلاك على حساب قيم أخرى تميز الوجود البشري الأصيل. حيث تسيطر العولمة الثقافية على أذواق الناس في العالم فالموسيقى الأجنبية والتلفاز والسينما الأمريكية وفي مجالات الترفيه والتسلية نجدهم يميلون للنمط الأمريكي.

ويمكن النظر إلى الرؤية فيما يخص عولمة الثقافة بالجانب الإيجابي لأنها تعمل على توسيع التفاعل بين الشعوب ونقل الخبرات ودمج الثقافة مع بعضها البعض، ويمكن نستفيد من هذا التعلم والتبادل وتنويع المعارف ونشر القيم الإنسانية، والفنون المختلفة، أما ما يخص النظرة السلبية فهي تقوم بإضعاف الهوية العربية وخصائص ثقافتنا، وهذا يشعرنا بالقلق عن مبادئنا وهويتنا ومصالحنا، والذي يجب أن نواجه بالعودة إلى عقيدة ومبادئ الإسلام الصحيحة القرآنية، وإظهار ثقافة الإسلام للعالم أجمع واكتساب المهارات والتكنولوجيا والعلم الذي يجعل الثقافة العربية منتشرة، وممكن القول إن العولمة الثقافية هي ظاهرة لا مفر منها في عالمنا المعاصر، وأنها تحمل في طياتها فوائد ومخاطر على الفرد والمجتمع ومن فوائدها، أن نستفيد منها في توسيع آفاقنا وزيادة معارفنا وتبادل الخبرات والثقافات مع الشعوب الأخرى، وايضاً أن نحافظ على هويتنا وثقافتنا العربية والإسلامية، وأن نكون حذرين من التأثيرات السلبية التي قد تضعف انتماءنا أو تشوه قيمنا، "وأن نكون موضوعيين في التعامل مع المصادر والمعلومات التي نتلقاها عبر وسائل الاتصال المختلفة والتعامل معها بوعي كبير" [١٩]، وأن لا نسمح بأن يغرر بنا الغرب أو يستغل ثقافتنا لأغراض سياسية أو اقتصادية فالثقافة هي هوية الشعب، واذا فقدت الثقافة فقد كل شيء. كما يمكن للعولمة أن تؤدي جانب ايجابي عبر مد جسور العلاقات الخارجية مع شعوب العالم، وفرض أهمية وضع استراتيجيات محددة ومدروسة لبناء الجسر مع الآخر بتصدير الثقافة المختلفة،

وبوساطة (الأفلام، الأغاني، الأدب، العروض الأدائية، اللغات، الأزياء، المعالم الأثرية والمعمارية،.. إلخ) باعتبارها مكون حيوي، يعمل على تعزيز الغايات الاقتصادية المتمثلة في السياحة والاستثمار والأهداف السياسية التي تتمثل في التسويق الأممي للدول، وتكوين انطباعات إيجابية عنها.

إنَّ عملية تأثير العولمة في الثقافة والهوية الوطنية من أبرز القضايا التي أقلقت الدول بشكل عام والمتقدمة بنحو خاص في الفترة الأخيرة، إذ ظل هذا الهاجس حاضر لدى بعض الدول، والتي قلقت أن تجتاحها الثقافة الأمريكية فتصبح نسخاً مكررة من أمريكا، الأمر الذي سيؤدي إلى طمس هويتها الثقافية الخاصة بها فلا يصبح لديها ثقافة معنية تعزز كياناتها كدول ذات سيادة مستقلة، وذلك لأن "الثقافة الوطنية كعامل مهم وحيوي في تأصيل انتماء الأفراد داخلياً" [٢٠]، ثم في مد جسور التفاهم والتعاون والثقة والسلام بالخارج، وتفتح ثقافة الشعوب نافذة للاتصال الفكري والتعاون، وتؤسس هوية مستقلة مميزة وكلما زاد الاختلاف الثقافي يتحقق التميز، وتعزز ضرورة التقارب من خلال حاجة الآخر إلى التعرف على المختلف، وفهم طبيعة اختلافه.

لهذا اجتهدت الدول المتقدمة في دعم إمكانياتها الثقافية، وفي تصدير منتجها الثقافي المحلي مستغلة موجة العولمة لتكون رافدا إيجابياً، يخدم ويدعم توجهاتها واستراتيجياتها على الأصعدة كافة، الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويعد تسارع الدول لتسجيل تراثها الثقافي والحضاري في منظمة اليونسكو العالمية مثالاً اعلى في الوعي بأهمية الثقافة في توثيق المكانة الثقافية والفكرية عالمياً. اصبحنا بوساطة التقدم التكنولوجي نعرف أكثر مما نتمنى معرفته عن كل ما يحدث في العالم، وعن الشعوب وثقافاتها، وبدأ يمتزج شيء من تلك الثقافات في الثقافة المحلية، ليصبح دخيلاً علينا. ونرى مثلاً أن مظاهر الاحتفال بثقافات الشعوب الأجنبية تحدث داخل بلداننا العربية، وبترحيب ودعم مجتمعي كما نجد أن منتجات بعض الاحتفالات، كعيد الهالوين مثلاً، متوفرة في المتاجر والمحال داخل البلد، "وأن الاحتفال بليلة رأس السنة أو بآخر يوم من أكتوبر فعالية، يتم التنظيم لها، ويحضرها كثير من الأفراد من أجل الاستمتاع بطقوسها الخاصة والمبهجة"[٢١]، التي تتجاوز منطقة الاحتفاء بالثقافة الدخيلة إلى تأكيد حاجة الإنسان اليوم للتسامح والتشارك مع ثقافات العالم المختلفة التي يعيش عدد من أهلها بيننا.

العولمة هيمنة عالمية واقصاء للخصوصية بوساطة تناول كافة الجوانب الحياتية، ومنها: الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية والعلمية وبمختلف اتجاهاتها، إذ تحاول ان تثبت هويتها بوساطة المال والمعلومة وما تمتلكه من تكنولوجيا ووسائل الاتصال التي من خلالها تم تغير العديد من الملامح الجمالية. بالتالي تعنى "العولمة بجعل النشاطات الانسانية في نطاق عالمي" [٢٢]. وعليه، لا شك أن الانفتاح على الآخر قد أصبح واقعاً ملموساً لا يمكن تجاهله، وذلك لأن الثقافة بمختلف تكويناتها الفنية والأدبية والبصرية والسمعية هي أجمل وأثمن ما تمتلكه شعوب العالم، وهي الصناعة العصرية الناعمة التي أثبتت فاعليتها في التسويق للشعوب والأمم على مر التاريخ. كما إن الثقافة هي الشيء الوحيد الذي يبقى عندما ننسى كل شيء آخر، فإن الحفاظ على المكونات الثقافية للبلدان وتعزيزها أصبح ضرورة ملحة في زمن العولمة فالهوية الثقافية الوطنية التي ننطلق منها للتعريف بأنفسنا أمام العالم هي في الأساس هوية مختزلة بعمق في الإنتاج الثقافي المحلي قديماً وحديثاً ومستقبلاً. "كما أن الحفاظ على الثقافة الوطنية لا يعني إقصاء ثقافة الآخر" [٢٣]، لأننا نحتاج إلى أن نفهم الآخر، ونتعرف عليه، حتى يتسنى لنا تحقيق التبادل الثقافي على أكمل وجه، وإزالة أي فهم أو انطباع خاطئ ناتج من الجهل بالاختلافات الثقافية بين الشعوب وبذلك تحمي الدول هويتها من التأثير السلبي للخمول الثقافي في نظام العولمة النشط.

ثالثاً – كيفية الحفاظ على الهوية الثقافية في ظل تحديات العولمة

يتعلق مدى نجاح أي بلد من البلدان النامية بصورة عامة في الحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية، بعمق عملية الانخراط الواعي في عصر العلم والتكنولوجيا، والوسيلة في كل ذلك هي اعتماد الإمكانيات التي توفرها لنا العولمة نفسها، وبالأغلب الجوانب الإيجابية منها، واي إنسان ليس مجبر أن يكون أميركي أو فرنسي أو غير ذلك، يجب أن يحافظ على هويتيه الثقافية وعاداته وأخلاقه، مع الاستفادة من الطفرة العلمية الناتجة عن العولمة، حيث يمكن تحقيق ذلك من صياغة عملية استراتيجية عربية للتعامل مع العلم والتكنولوجيا الحديثة، وإعادة النظر في المناهج الدراسية والجامعية على نحو عام يهدف إلى تأصيل الهوية الثقافية والحضارية في الشخصية العربية لمواجهة تحولات العالم اليوم، "وايضاً التنسيق والتعاون بصورة متكاملة في وزارات التربية والتعليم العالي والثقافة والإعلام، والأوقاف والشؤون الإسلامية، والعدل وذلك للمحافظة على الهوية

الإسلامية من أي مؤثرات جانبية سلبية" [٢٤]، والعمل على خلق إعلام ناضج يبني الإنسان العربي الواعي والقادر على أن يكون فاعلاً في حوار الثقافات، ومؤمن ضد أخطار العولمة، ومحافظاً على هوية الأمة وقيمها، "مع ضمان الحرية الثقافية وتدعيمها حيث إن حرية الثقافة وإن كانت تنبع من العدالة في توزيع الإمكانات والإبداعات الإنسانية على الأفراد" [٢٥]، رغم أنها في الوقت نفسه يشكل عامل أساس في إغناء الحياة الثقافية وزيادة عطائها بالشكل الذي لايجوز فهم الحرية على أنها فتح للباب أمام كل تعبير، وقبول أي فكر، والحرية المقصودة هي الحرية المنضبطة بضوابط رسمية تلزم كافة الافراد.

كيفية الحفاظ على الهوية الثقافية في ظل تحديات العولمة تعتمد التعرف على مواطن القوة والضعف في العولمة، ودراسة سلبياتها وإيجابياتها بأكثر من طريقة، وليس من الحكمة أن نتعامل مع العولمة بمنطق الرفض المطلق، أو القبول المطلق فالعولمة عملية تاريخية، وبذلك يعد منطق معقد من خلال ما يدعو إليه بعضهم من ضرورة محاربة العولمة بشكل عام، فهل يمكن مثلاً محاربة شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) من خلال إصدار قرار بالامتناع عن التعامل معها، أو هل يمكن الامتناع عن التعامل مع منظمة التجارة العالمية على الرغم من سلبياتها المتعددة، وغير ذلك من المؤسسات العالمية التي لا يمكن الانغلاق دونها، حيث إن الرفض المطلق للعولمة لن يمكن الدول والمجتمعات من تجنب مخاطرها، كما أن القبول المطلق لها لن يمكنها من الاستفادة التامة منها. الهوية ليست فردية فحسب، بل هي قضية جماعية واجتماعية، تشمل الاختلافات والشعور بالانتماء بين الأشخاص والمجموعات التي تتميز عن غيرها وتتجدد فاعليتها، دون أن تخلي مكانها لغيرها من البصمات [٢٦].

بعد مجمل الكلام حول العولمة والهوية الثقافية وتأثيراتها وكذلك المخاطر التي تنطوي عليها بشأن هويتنا الثقافية، يمكننا أن نسأل، هل يمكن الحفاظ على الهوية الثقافية في زمن العولمة؟ نعم عبر آليات وطرق، تساعدنا الحفاظ على الهوية الثقافية في زمن العولمة وهذا يتطلب جهوداً واعية على المستويات الفردية والمجتمعية، ففي ظل التأثيرات الكبيرة التي تفرضها العولمة على الثقافات المحلية، يمكن اتباع عدد من الاستراتيجيات لضمان استمرارية الهوية الثقافية العربية والحفاظ عليها وهي:

تعزيز اللغة الأم: اللغة هي أساس الهوية الثقافية لأي مجتمع، لذا يجب تعزيز استخدام اللغة العربية في الحياة اليومية سواء في التعليم أو عبر حفظ القران الكريم أو الإعلام أو الأعمال، "وكذلك تشجيع الأجيال الجديدة على إتقان لغتهم الأصلية والحفاظ على استخدامها، مما يسهم في تعزيز الروابط الثقافية" (٢٧).

تشجيع الفنون والتراث المحلي: يتطلب منا الحفاظ على هويتنا الثقافية في مواجهة العولمة دعم الفنون التقليدية مثل الأدب، الموسيقى، الحرف اليدوية، والعمارة المحلية يساعد في تعزيز الفخر بالثقافة الأصلية، ...الخ، "وذلك بجانب محاولة إقامة المهرجانات والمعارض الفنية التي تسلط الضوء على التراث الثقافي يمكن أن تسهم في الحفاظ عليه" (٢٨).

الاعتماد على التعليم الثقافي: يجب أن يكون التعليم أداة رئيسية في غرس القيم الثقافية والمحافظة عليها، وذلك في تضمين عناصر من التراث والتاريخ العربي بالمناهج الدراسية، مما يعزز ذلك من وعي الأجيال الناشئة بأهمية هويتهم الثقافية العربية.

دور الإعلام المحلي في عكس الثقافة المحلية: إن دور الإعلام المحلي في الحفاظ على الهوية الثقافية ضروري، حيث يجب أن يتم تسليط الضوء على المحتوى الذي يعكس الثقافة المحلية ويعزز القيم والتقاليد الوطنية، واعتماد وسائل الإعلام المحلية المختلفة على بث قيمنا العربية في شكل محتوى مناسب لجميع الفئات العمرية.

التوازن بين الانفتاح والحفاظ على الهوية: الانفتاح على العالم أمر ضروري لتحقيق التنمية والتطور، فلا يمكننا أن نغفل التأثيرات الإيجابية الكبيرة للعولمة، ولكن يجب أن يكون هذا الانفتاح مصحوب بالوعي الثقافي الذي يعزز القيم المحلية ويحافظ عليها من التلاشي، وتلك من الأمور الهامة في سياق حديثنا حول العولمة والهوية الثقافية.

إحياء الاحتفالات والمناسبات التقليدية: الاحتفالات والمناسبات الثقافية والدينية مثل الأعياد، والأيام الوطنية تعزز الروابط المجتمعية، وتشكل منصة للحفاظ على العادات والتقاليد المتوارثة، لذا نحتاج في ظل عصر العولمة والاجتياح الكبير لمناحي الحياة أن يتم إحياء الاحتفالات التقليدية المحلية.

الاندماج الانتقائي مع العولمة: بدل ان نقاوم العولمة بشكل كامل، يمكن أتباع نهج انتقائي يعتمد على تبني ما يتناسب مع الهوية الثقافية المحلية، مع الحفاظ على القيم الأساسية للتراث، وذلك في الاستفادة من إيجابيات العولمة وتجنب السلبيات الناتجة عن مخاطر العولمة على الهوية الثقافية.

هناك وسائل عديدة تمكننا من الحفاظ على هويتنا الثقافية العربية لمواجهة خطر العولمة في المجالات المتعددة ففي مجال العقيدة والأخلاق، مثلاً يمكن تعزيز الهوية بأفضل العناصر، عن طريق العودة إلى مبادئ الإسلام، وتربية الأمة عليه بعقيدته القائمة على توحيد الله سبحانه وتعالى، والتي تجعل المسلم في عزة معنوية عالية، وبشريعته السمحة وأخلاقه وقيمه الروحية فالهزيمة الحقيقية هي الهزيمة النفسية من الداخل، "حيث يتشرب المنهزم كل ما يأتيه من المنتصر، أما إذا انعكس هذا من خلال تعزيز الهوية ولم يستسلم من الداخل فإنها سيستعصي ولا يتقبل الذوبان" [٢٩]، وأيضا ابراز إيجابيات الإسلام وعالميته، وعدالته، وحضارته، وثقافته، وتاريخه للمسلمين قبل غيرهم، ليستلهمو أمجادهم ويعتزوا بهويتهم، فقد استيقظت أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي على رؤية النهضة العلمية الإسلامية الباهرة، وسرعان ما أخذ كثيرون من شبابها يطلبون معرفتها، فرحلوا إلى مدن الأندلس يريدون التثقف بعلومها، وتعلموا العربية، وتتلمذوا على علمائها، وانكبوا على ترجمة نفائسها العلمية والفلسفية إلى اللاتينية وباقي اللغات، وقد أضاءت هذه الترجمات لهم مسالكهم إلى نهضتهم العلمية الحديثة.

اما على المستوى الثقافي، يجب التوجه إلى تحديد ثقافتنا، وإغناء هويتنا والدفاع عن خصوصيتنا، ومقاومة الغزو الثقافي الذي يمارسه المالكون للعلم والتكنولوجيا، وهذا لا يقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات التي لا مفر منها لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والتكنولوجيا، خصوصاً نحن في "حاجة إلى التحديث أي إلى الانخراط في عصر العلم والتكنولوجيا كفاعلين مساهمين" [٣٠]، ولكننا في الوقت نفسه بحاجة إلى مقاومة الاختراق وحماية هويتنا وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع بوسائل العلم والتكنولوجيا، وليست هاتان الحاجتان الضروريتان متعارضتين بل متكاملتين الى حدٍ ما.

أما في المجال السياسي يمكن التعامل مع العولمة عبر عدة جهات، اولها إصلاح الأوضاع الداخلية، فالأوضاع الداخلية في العديد من دول العالم الثالث ومنها الدول العربية لا تؤهلها للتعامل بفاعلية مع متطلبات عصر العولمة وتحدياته مما يحتم ضرورة الشروع في عملية الإصلاح الداخلي، "أن الإصلاح السياسي القائم على تحقيق تحول ديمقراطي حقيقي بصورة تدريجية وتراكمية، يحقق العدالة الاجتماعية، ويكافح ظواهر الفساد السياسي والإداري" [٣١]، ليكون هو المدخل الحقيقي لبناء دولة المؤسسات، وتحقيق سيادة القانون، ويرشد عملية صنع السياسات والقرارات، وايضاً عبر تطوير سياسات التكامل الإقليمي، لأن تطوير سياسات التكامل الإقليمي بين دول العالم الثالث، أصبح ضرورة وذلك بالنظر إلى عمق التحديات التي تطرحها العولمة على هذه الدول، ومحدودية قدرتها على التعامل معها بشكل فردي، فأغلب دول العالم الثالث وعلى رأسها الدول العربية لا تنقصها هياكل التكامل ولا التصورات والأفكار والبرامج ولكن الذي ينقصها هو إرادة التكامل، بما تتضمنه من معاني الحرص والعمل المشترك على تذليل المشكلات والعقبات التي تعيق التكامل.

أما في المجال الاقتصادي لم تقم مجموعة عربية بتنسيق خططها التنموية وسياستها الاقتصادية، فإن الوطن العربي لن يستطيع مواجهة المنافسة وما يميل أليه من الهيمنة السائدة على الصعيد الدولي، فالمستقبل الذي ينتظر الدول العربية والإسلامية سواء أكان مستقبلاً مشرقا أو مظلماً فهو يعتمد في المقام الأول على مدى فعالية الاستراتيجية الاقتصادية التي تتبناها هذه الدول، وللوصول إلى درجة مناسبة في مواجهة سلبيات العولمة في المجال الاقتصادي، ويمكن التركيز على تحقيق تنمية عربية نشطة ومتوازنة ومستقلة لا تهدف إلى التقليل من مخاطر تحديات العولمة فحسب، بل تعمل على رفع مستوى غالبية الناس أيضاً، "وإنشاء سوق عربية مشتركة يحتاج إلى تعميق مفهوم الهوية العربية والانتماء القومي" [٣٢]، وضرورة دعم الأمن القومي العربي، إلى جانب المصلحة الاقتصادية المشتركة، فهذه السوق يجب أن تقام بشكل تدريجي بين الأقطار العربية، أو بين بعضها كمرحلة انتقالية، لأنها سوف تعمل على توحيد هذه الأقطار، وتعزز الأمن الاقتصادي العربي، ومن ثم تعزز الأمن القومي العربي.

ومن منظور آخر نرى أن التحدي الأكبر الذي تفرضه العولمة على الهوية الثقافية يكمن في كيفية تحقيق التوازن بين الاستفادة من الفرص التي توفرها العولمة، وبين الحفاظ على الهوية الثقافية والتراث العربي الأصيل، كما أن حل تلك المعضلة يكمن في تعزيز التعليم باللغة العربية، ودعم الفنون التقليدية، وتشجيع المبادرات التي تعزز من قيم المجتمع العربي الأصيلة، مع الاستفادة من التطور التكنولوجي والتفاعل مع العالم بطريقة مدروسة. وفي عملية بناء وتعزيز الهوية الثقافية في ظل تحديات العولمة والحفاظ عليها، يجب نشر الوعي والمعرفة بين جميع أفراد المجتمع بأهمية الهوية الثقافية وتعزيز فكرة المحافظة على الإرث الثقافي والعمل على ترسيخه من أجل تربية جيل من الأبناء متمسك بهويته الثقافية ويفخر بها، "والعمل على اقامة ندوات وورش عمل تتناول قضية تعزيز الهوية الثقافية، والعمل على حملات إعلامية وتثقيفية في المدارس والمراكز الثقافية" [٣٣]، واستهداف المسرح المدرسي بالأخص والترفيهي والتلفزيون ومعارض الصور والتراث، بالإضافة لوسائل الإعلام من الصحف والمجلات والمنشورات، وكذلك وسائل التواصل الاجتماعي، والتركيز في المناهج على الهوية الثقافية، والاهتمام بالبحوث وكتابة الدراسات والكتب والدراسات التي تتعلق بالهوية الثقافية.

أعتقد مهم أن نرى أرشيف ثقافي غني بالمعلومات التي تعزز من الهوية الثقافية، وأن يصبح ارثاً في المستقبل، وأن يكرس الاهتمام بموضوع التراث والفلكلور والشعر الشعبي والأدب بالشكل الذي يعزز من الهوية الثقافية، وتحديث ثقافتنا وتطويرها عبر بيان وضعية المتحول من الثابت فيها، وذلك بإثبات هويتنا في ظل تحديات العولمة حتى نتمكن من المحافظة على ثقافتنا العربية، ولابد من وضع رؤية ثقافية تعد كالمنهج والخريطة التي نسير عليها، "والتفاعل مع الثقافات العالمية، دون اذابة هويتنا ومحاولة جعل ثقافتنا منتجة لا مستهلكة" [٣٤]، وعليه، لابد من ابتكار أدوات لتعزيز وجودنا الثقافي وبنفس الوقت حماية خصوصيتنا وهويتنا أمام الآخر، فمواجهة الثقافات الأخرى تقضي التعامل معها وليس تبعيتها حتى لا نذوب في الآخر، وهكذا يمكن أن تسهم هذه الخطوات في تعزيز هويتنا الثقافية، وإلى أهمية اتخاذ مزيد من الخطوات لبذل مزيد من الجهود للحفاظ على هويتنا الثقافية، خاصة في ظل المتغيرات المتسارعة والمتلاحقة التي اجتاحت المجتمعات ومنها العولمة.

الخاتمة

يبقى التحدي الأكبر هو مواجهة العولمة وأعرافها التي تأتي بها، والتي تمثل تحديات واسعة للهوية الثقافية، بصفتها عوامل ضاغطة للمجتمع تعمل باتجاه إعادة تشكيل اخلاقه وثقافته وتقاليده واعرافه، ونجد أن موجات التأثير الغربي التي تبث عبر منصات الإعلام والتكنولوجيا قد أثقلت من وطأة الضغوط لتغيير الهوية الثقافية العربية وتنويعها، وايضا فرضت الكثير على المجتمع العربي بصورة خفية تقريباً، ومدى التغيير المطلوب الذي أصبح يتعارض مع الموروث الثقافي والديني، فمع التحول الرقمي للمجتمعات أصبحت الهوية الثقافية أمام طوفان من التأثيرات العالمية، وأصبح الشباب العرب أكثر عرضة لأعراف وقيم ثقافية متنوعة، سمحت لهم بالتفاعل مع مجتمع عالمي أوسع، وعرضتهم لأفكار وثقافات جديدة تتحدى الأعراف التقليدية، وشجعتهم على بناء نظرة أكثر عالمية، وتتجاوز حدود الموروث العربي، وتلك بلا أدنى شك عملية ممنهجة ومستمرة ومتطورة، وتمثل إحدى صور غسل الأدمغة البطيء لإنتاج ثقافة أخرى موازية تناقض مفاهيم المواطنة، وأعراف المجتمع العربي وقيمه.

يجب علينا العمل وتحديد خطط ممنهجة من أجل مواجهة العولمة وحماية قيمنا وهويتنا، إذ أن المواجهة يجب أن تكون بالمثل كالتخطيط والعمل، وهو ما يوجب علينا أن نقرر بصفتنا وطناً عربياً واعياً ومدركاً أهمية المواجهة عبر استخدام الأدوات والآليات التي نواجه بها اليوم، وذلك عن طريق الاستثمار في إنشاء المنابر والمنصات الإعلامية، والمؤسسات الثقافية الإقليمية والعالمية، وصناعة البرمجيات والتطبيقات الموجهة لترسيخ القيم والثقافة العربية. ويمكن أن تمثل هذه الآليات مراكز بناء ثقافية إيجابية فعالة في مواجهة الأثر المهيمن للعولمة الإعلامية الجديدة، ويمكن معها إعادة أتجاه بوصلة الإعلام العربي للتركيز على قضايا الثقافة الإسلامية والعربية، والتقاليد التي تسهم في البناء الصحيح للأسرة، وتعزيز التكوين والانتماء الوطني، وتعمل بمنزلة ثقل موازن لتأثير الثقافات الغربية، كما أنه ينبغي بناء أسس المشاركة الشعبية الواسعة بما يحافظ على الهوية الثقافية بصفتها العنصر الأكثر أهمية للاستقرار الاجتماعي الاقتصادي والسياسي، وذلك يستوجب تطوير قطاعات محورية مثل التعليم، والإعلام، سواء الرسمي والخاص والموازي الجماهيري، لتعزيز الارتباط بالجذور الثقافية، بجانب العمل على تحقيق العدالة في توزيع المسؤوليات والأدوار بين

المؤسسات الوطنية، وتشجيع التعاضد الوطني بين الطبقات الاجتماعية الوطنية الإنتاجية، وهي كلها خطوات حاسمة نحو تعزيز الشعور بالهوية الثقافية الوطنية في الساحتين المحلية والعالمية.

الهوامش

(١) رشيد بلحبيب، الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، (بيروت _ لبنان: ٢٠١٣)، ص٢٤٧، ٢٤٨.

(٢) إيان كلارك، العولمة والتفكك، مركز الإمارات والدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١، أبو ظبي: ٢٠٠٣، ص٣٨.

(٣) أمينة رقيق، اللغة العربية والعلوم والعولمة أزمة هوية الملتقى الدولي الأول حول المجتمع العربي والاستبعاد والاحتواء الاجتماعي في ظل المتغيرات المعاصرة، جامعة الجزائر، ط١، الجزائر: ٢٠١١، ص٤٧.

(٤) أيسم سعد محمدي محمد، تعزيز الهوية الثقافية العربية في مدارس التعليم الأجنبي (دراسة ميدانية)، مجلة العلوم التربوية، العدد(٤)، المجلد(١)، القاهرة: أكتوبر، ٢٠١٧، ص٢٢.

(٥) محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: ٢٠٠٣، ص ٩١.

(٦) دعاء محمد أحمد إبراهيم، التوزيع الاجتماعي للتعليم وتشكيل الهوية الثقافية "دراسة نقدية في سيسيولوجيا التعليم المصري"، مجلة العلوم التربوية، العدد(٤)، المجلد(٢)، القاهرة: أكتوبر ، ٢٠١٧، ص١١.

(٧) د. محمد الكناني، العلم والفن، محاضرة القيت على طلبة الدكتوراه، جامعة بغداد، كلية الفنون الجميلة، قسم الفنون التشكيلية، ٢٠٢١/٥/١١، العراق – بغداد.

(٨) شراد محمد العلمي، (النظام التعليمي وثوابت الهوية الوطنية كتب المرحلة الأولى من التعليم الابتدائي نموذجا)، رسالة ماجيستير، تخصص علم اجتماع، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة سطيف، الجزائر: ٢٠١٥، ص٣٠.

(٩) السيد عبد العزيز البهواشى، التعليم وإشكالية تأصيل الهوية، عالم الكتب، القاهرة: ٢٠١٥، ص٢٦.

(١٠) عبد العلي الودغيري، اللغة والدين والهوية، مصدر سابق، ص٢١.

(١١) مديحة فخرى محمود محمد، دور التربية في مواجهة التغريب بالمجتمع المصري (تصور مقترح)، مجلة كلية التربية، جامعة حلوان، مجلد (١٩)، العدد (٢)، أبريل، ٢٠١٣، ص ٥٧٣.

(١٢) بول اشوين، تغيير التعليم العالي، ترجمة: لميس إسماعيل عمر، الطبعة العربية الأولى، مكتبة العبيكان للنشر، (الرياض _ السعودية: ٢٠١٠)، ص٢٠١.

(١٣) محمد الشبيني، صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة، (ط١، دار العلم للنشر والتوزيع)، لبنان: ٢٠٠٢، ص٢٣.

(١٤) بول اشوين، تغيير التعليم العالي، مصدر سابق، ص١٦٦.

(١٥) حسن العايد، المجتمع الأردني ما بعد العولمة، (ط١، دار وائل للنشر والتوزيع)، عمان _ الاردن:٢٠٠٢، ص٦٢.

(١٦) عبد القادر الريحاوي، المباني التاريخية، المديرية العامة للآثار والمتاحف، (دمشق – سوريا: ١٩٧٢)، ص٥٩.

(١٧) عبد القادر الريحاوي، المباني التاريخية، مصدر سابق، ص٦٦.

(١٨) يوسف القرضاوي، المسلمون والعولمة، دار التوزيع و النشر الإسلامية، (القاهرة _ مصر: ٢٠٠٠)، ص ١٠٢.

(١٩) احمد بعلبكي، الهوية وقضايا في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت _ لبنان: ٢٠١٣) ص ٣٢٢.

(٢٠) د. عبد الحسين شعبان، الهوية والمواطنة والبدائل المتلبسة والحداثة المتعثرة، (ط١، مركز دراسات الوحدة العربية)، بيروت: ٢٠١٧، ص٣٢.

(٢١) د. عبد الوهاب المسيري، الثقافة والمنهج، (ط١، دار الفكر)، دمشق _ سوريا: ٢٠٠٩، ص ١٨٣.

(٢٢) احمد صدقي الدجاني، العرب والعولمة، ندوة، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط٣ بيروت: ٢٠٠٠، ص ٦٣.

(٢٣) عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، تحرير سوزان حرفي، (ط١، دار الفكر)، دمشق _ سوريا: ٢٠٠٩)، ص ٢٩٦.

(٢٤) ممدوح محمود منصور، العولمة دراسة في المفهوم والظاهرة والأبعاد، (ط١، دار الجامعة)، الإسكندرية _ مصر: ٢٠٠٣، ص٢٢.

(٢٥) سهيل حسن الفتلاوي، العولمة واثرها على الوطن العربي، (ط١، دار الثقافة)، عمان _ الأردن: ٢٠٠٩، ص٤١.

(٢٦) محمد عمارة، مخاطر العولمة علي الهوية سلسلة "التنوير الإسلامي"، دار نهضة مصر، القاهرة: ١٩٩٩، ص ٦.

(٢٧) عبد العزيز المنصور، العولمة والخيارات العربية، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، مجلة ٢٥، العدد ٢، دمشق: ٢٠٠٩، ص ٥٣٣.

(٢٨) حيدر عبد الرزاق كمونة، الحفاظ على التراث المعماري في مدينة بغداد، مصدر سابق، ص٢٢.

[٢٩] فيك جورج وبول ويلد ينج، العولمة والرعاية الإنسانية، ترجمة: طلعت السروجي، (ط١، المجلس الأعلى للثقافة)، بالقاهرة: ٢٠٠٥، ص٤٦.

[٣٠] محمد بن سعد التميمي، العولمة وقضية الهوية الثقافية في ظل الثقافة العربية المعاصرة، ط ١، الرياض: ٢٠٠١، ص٣٢.

[٣١] عبد العزيز المنصور، العولمة والخيارات العربية، مصدر سابق، ص٤٨٧.

[٣٢] عهد كمال شلغين، الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع، (ط١، دار الثقافة)، دمشق: ٢٠١٥، ص٢٨.

[٣٣] خليل نوري مسهر العاني، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، (ط١، ديوان الوقف للنشر)، بغداد: ٢٠٠٩، ص٥٣.

[٣٤] د. عبد الوهاب المسيري، دفاع عن الأنسان دراسات نظرية وتطبيقية، النماذج المركبة ،ط ١، دار الشروق للنشر، (مصر _ ٢٠٠٣)، ص ١٠٣.

المصادر

أ- الكتب والمعاجم

١- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، (ج١، دار الكتاب اللبناني) بيروت: ١٩٨٢.

٢- عبد العلي الودغيري، اللغة والدين والهوية، مطبعة النجاح الجديدة، (الدار البيضاء _ المغرب: ٢٠٠٠).

٣- رشيد بلحبيب، الهويات اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، (بيروت _ لبنان: ٢٠١٣).

٤- إيان كلارك، العولمة والتفكك، مركز الإمارات والدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١، أبو ظبي: ٢٠٠٣.

٥- أمينة رقيق، اللغة العربية والعلوم والعولمة أزمة هوية الملتقى الدولي الأول حول المجتمع العربي والاستبعاد والاحتواء الاجتماعي في ظل المتغيرات المعاصرة، جامعة الجزائر، ط١، الجزائر: ٢٠١١.

٦- خليفة أحمد العتيرى، أثر التعليم باللغات الأجنبية على الهوية القومية، بحوث المؤتمر النقدي الحادي عشر بعنوان "اللغة العربية في مواجهة التحديات المعاصرة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الأردن: ٢٠٠٨.

٧- محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر: ٢٠٠٣.

٨- د. محمد الكناني، العلم والفن، محاضرة القيت على طلبة الدكتوراه، جامعة بغداد، كلية الفنون الجميلة، قسم الفنون التشكيلية، ٢٠٢١/٥/١١، العراق – بغداد.

٩- السيد عبد العزيز البهواشى، التعليم وإشكالية تأصيل الهوية، عالم الكتب، القاهرة: ٢٠١٥.

١٠- بول اشوين، تغيير التعليم العالي، ترجمة: لميس إسماعيل عمر، الطبعة العربية الأولى، مكتبة العبيكان للنشر، (الرياض _ السعودية: ٢٠١٠).

١١- محمد الشبيني، صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة، (ط١، دار العلم للنشر والتوزيع)، لبنان: ٢٠٠٢.

١٢- حسن العايد، المجتمع الأردني ما بعد العولمة، (ط١، دار وائل للنشر والتوزيع)، عمان _ الاردن:٢٠٠٢.

١٣- عبد القادر الريحاوي، المباني التاريخية، المديرية العامة للآثار والمتاحف، (دمشق – سوريا: ١٩٧٢).

١٤- يوسف القرضاوي، المسلمون والعولمة، دار التوزيع و النشر الإسلامية، (القاهرة _ مصر: ٢٠٠٠).

١٥- احمد بعلبكي، الهوية وقضايا في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت _ لبنان: ٢٠١٣).

١٦- د. عبد الحسين شعبان، الهوية والمواطنة والبدائل المتلبسة والحداثة المتعثرة، (ط١، مركز دراسات الوحدة العربية)، بيروت: ٢٠١٧.

١٧- د. عبد الوهاب المسيري، الثقافة والمنهج، (ط١، دار الفكر)، دمشق _ سوريا: ٢٠٠٩.

١٨- احمد صدقي الدجاني، العرب والعولمة، ندوة، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط٣ بيروت: ٢٠٠٠.

١٩- عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، تحرير سوزان حرفي، (ط١، دار الفكر)، دمشق _ سوريا: ٢٠٠٩).

٢٠- ممدوح محمود منصور، العولمة دراسة في المفهوم والظاهرة والأبعاد، (ط١، دار الجامعة)، الإسكندرية _ مصر: ٢٠٠٣.

٢١- سهيل حسن الفتلاوي، العولمة واثرها على الوطن العربي، (ط١، دار الثقافة)، عمان _ الأردن: ٢٠٠٩.

٢٢- محمد عمارة، مخاطر العولمة علي الهوية سلسلة "التنوير الإسلامي"، دار نهضة مصر، القاهرة: ١٩٩٩.

٢٣- فيك جورج وبول ويلد ينج، العولمة والرعاية الإنسانية، ترجمة: طلعت السروجي، (ط١، المجلس الأعلى للثقافة)، القاهرة: ٢٠٠٥.

٢٤- محمد بن سعد التميمي، العولمة وقضية الهوية الثقافية في ظل الثقافة العربية المعاصرة، ط ١، الرياض: ٢٠٠١.

٢٥- عهد كمال شلغين، الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع، (ط١، دار الثقافة)، دمشق: ٢٠١٥.

٢٦- خليل نوري مسهر العاني، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، (ط١، ديوان الوقف للنشر)، بغداد: ٢٠٠٩.

٢٧- د. عبد الوهاب المسيري، دفاع عن الأنسان دراسات نظرية وتطبيقية، النماذج المركبة ،ط ١، دار الشروق للنشر، (مصر _ ٢٠٠٣).

ب-الصحف والمجلات

٢٨- عبد العزيز المنصور، العولمة والخيارات العربية، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، مجلة ٢٥، العدد ٢، دمشق: ٢٠٠٩.

٢٩- حيدر عبد الرزاق كمونة، الحفاظ على التراث المعماري في مدينة بغداد: الحفاظ وتطوير المنطقة المتاخمة للمشهد الكاظمي الشريف، بحث منشور في مجلة سومر الصادرة عن الهيئة العامة للآثار والتراث، المجلد (٥٣)، الجزء الأول والثاني، (بغداد: ٢٠٠٦).

٣٠- مديحة فخرى محمود محمد، دور التربية في مواجهة التغريب بالمجتمع المصري (تصور مقترح)، مجلة كلية التربية، جامعة حلوان، مجلد (١٩)، العدد (٢)، أبريل، ٢٠١٣.

٣١- دعاء محمد أحمد إبراهيم، التوزيع الاجتماعي للتعليم وتشكيل الهوية الثقافية "دراسة نقدية في سيسيولوجيا التعليم المصري"، مجلة العلوم التربوية، العدد(٤)، المجلد(٢)، القاهرة: أكتوبر ، ٢٠١٧.

٣٢- أيسم سعد محمدي محمد، تعزيز الهوية الثقافية العربية في مدارس التعليم الأجنبي (دراسة ميدانية)، مجلة العلوم التربوية، العدد(٤)، المجلد(١)، القاهرة: أكتوبر، ٢٠١٧.

٣٣- أحمد الربعاني، اتجاهات طلبة التعليم ما بعد الأساسي بسلطنة عمان نحو الهوية الوطنية، مجلة الدراسات التربوية والنفسية، جامعة السلطان قابوس، المجلد(١١)، العدد(١)، عمان: يناير، ٢٠١٧.

ج- الرسائل والاطاريح

٣٤- شراد محمد العلمي، (النظام التعليمي وثوابت الهوية الوطنية كتب المرحلة الأولى من التعليم الابتدائي نموذجا)، رسالة ماجيستير، تخصص علم اجتماع، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة سطيف، الجزائر: ٢٠١٥.